المتلقي منتجا ثانيا للنص: (بين القراءة و التناص)

Récepteur :Deuxième ment productive du texte (Entre la lecture et de l'intertextualité)

بن علوة خيرة•

Résumé

Axé sur les théories contemporaines critiques souvent les bénéficiaires de la littérature, et comment ils contribuent à l'enrichissement de laquelle les liquidités et les lectures en fonction des différents mécanismes et concepts étant en mesure d'accéder à cette enrichi par la diversité. Puis ce parti (récepteur) présente plusieurs passages à suivre dans sa relation avec les textes littéraires et jusqu'à une étape soutenue en traitant la lecture, de lancer le processus de compréhension, d'explication, l'interprétation, puis jusqu'à l'intertextualité - le plus haut niveau.

Le récepteur, qui hésitait entre ceci et cela, crée son processus communicative et interactive avec la forme de texte des formes productives qui élargissent son esprit, et bars ouverts de texte à différents points de vente à travers les entrées découvert ce récepteur subtile, peut aller dans les pistes, chacun selon ses capacités et potentiel intellectuel, linguistique et Déplacer; si un lecteur arrêtent à la seule lecture, et si l'autre est guidé à plus de lire, et si des points lumineux en cours d'exécution dans les inconnues de texte qui se dégage dans les blancs et les draps avec le silence sur le texte, puis ont eu lieu entre eux et ce qui est apparent villages conduisent à sortir de l'origine dans l'interprétation du texte, dans la mesure où le texte de la production de parallèle pour lui, il semble encore lointaine, près d'elle intérieurement.

Mots clés: réception / récepteur / texte / lecture / interprétation / intertextualité.

يعتمد القارئ في نظرته إلى النص ومحاولاته التحليلية لدلالاته على "المدّخر" أو "الموسوعة" - كما اصطلح عليها أومبرتو إيكو-[1] التي تختزن في ذهنه، وتجعله على بصيرة

• طالبة دكتوراه بجامعة وهران

بالزوايا الواجب الدخول إلى النص من خلالها، فيتخذها سِخريّا لتوسيع تلك الزوايا والغور في الآفاق البعيدة التي اعتراها الصمت، وهي حروف على ورق؛ هنا "تبدأ متعة القارئ عندما يصبح هو نفسه منتجا أي عندما يسمح له النص بأن يأخذ ملكاته الخاصّة بعين الاعتبار."[2]

إنّ اصطلاح "الإنتاج" الذي يضطلع به المتلقي في مرحلة "ما بعد التلقي" ليتبوّأ منزلة "القارئ" حين "يقف ... على الفراغات والفجوات التي يلاحظها في ثنايا النص، محاولا إتمامها ليشارك في صنع المعنى"[3]،يوسّع من مهام هذا الطرف ويجعله أهلا لأن يقيس النص بأي زاوية يختارها، وبأيّ درجة يبلغها؛ "حيث يمكنه الاكتفاء باستهلاكه أو نقده أو الإعجاب به، أو رفضه أو الالتذاذ بشكله، أو تأويل مضمونه، أو تكرار تفسير له أو محاولة تفسير جديد له مسلَّم به، كما يمكنه أن ينتج بنفسه عملا جديدا."[4]

وعليه، فإنّ "الإنتاج" مدارجٌ ومستويات؛ إذ إنّ المتلقين يتباينون فكرا وثقافة وإدراكا، الأمر الذي يجعلهم يتفاوتون في قراءة النصوص، ويسابق بعضهم بعضا في الدرجات؛ وقليل ذاك الذي يبلغ "سدرة المنتهى" فيجعل هذا النص المتلقّى مطيّة له لإنتاج نصّ ثان، يتآلف معه في نقاط ويختلف في أخَر، ليحقّق "تناصا" بين ذا وذاك؛ مما يؤهّل هذا المتلقي إلى رتبة "مبدِع ثانٍ؛ أي: إنه مبدع للنص بقراءته وتذوُّقه وتأمُّله، وكأن للنصِّ فاعلَين (مبدعَين)... الأوَّل تنتهي فاعليته بمجرَّد تصديره نصه، وابتعاده عنه، والثاني تتحدَّد فعاليته في أثناءِ كلِّ مقاربةِ قراءةٍ وبعدها."[5] ولكن؛ ما هي المدارج المختلفة التي يمكن للمتلقي سلوكها قبل أن يصبح نظيرا لصاحب النص في "رتبة الإبداع"؟

---

[1] – ينظر: فيرناند هالين وآخرون (فرانك شويرفيجن، ميشيل أوتان): بحوث في القراءة والتلقي. ترجمها وقدّمها وعلّق عليها: محمد خير البقاعي. مركز الإنماء الحضاري للنشر، حلب، ط1، 1998، ص 50.

[2] – فولفغانغ إيزر: فعل القراءة _نظرية جمالية التجاوب (في الأدب)_. تر: د.حميد لحمداني وجلالي الكدية. منشورات مكتبة المناهل، فاس_المغرب.ص 56.

[3] – ينظر؛ محمود عباس عبد الواحد: قراءة النصّ وجماليات التلقي بين المذاهب الغربيّة الحديثة وتراثنا النقديّ _دراسة مقارنة_. دار الفكر العربيّ، القاهرة، 1996م، ط1.ص 22– 23.

[4] – هانس روبرت ياوس: جمالية التلقي _من أجل تأويل جديد للنص الأدبيّ–، تر: رشيد بنحدّو. منشورات المجلس الأعلى للثقافة بمصر، 2004، ط1، ص 101.

[5] – ينظر؛ محمد راتب الحلاق: "الإجراء النقدي في كتاب النص والممانعة". مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، عدد 354، ص 7.

ينبغي أن نعلم أنّ المتلقّي وهو في طريقه إلى اعتلاء منصّة "الإنتاج" يكون محمّلا بعمليّتين أساسيّتين عليهما مدارُ القراءة كلّها على اختلاف مدارجها؛ حيث إنّه يجد نفسه "في موقع تقاطع بين التذكّر والترقّب (retension– protension)، ويكون التذكّر مسؤولا عن اندماج القارئ في النص، بينما يشير الترقّب إلى لحظة تحرّر القارئ من النص، وهذه العمليّة تتكرّر أثناء فعل القراءة مرّات عديدة وهي الصورة التي تبيّن كيف يجرّب القارئ النصّ كحدث حيّ."[6]

إنّ هذا "التجريب" الذي يمارسه القارئ على النص من خلال "التذكّر" و"الترقّب" يتبدّى في صور شتّى هي المدارج التي مهّدنا إليها أعلاه؛ فالنّص في هذه المرحلة "حقل" زاخر بألوان المحاصيل، ولكلّ جانبٍ نصيب منها بقدر الإجراء الذي يسلّطه عليه؛ إذِ الكلّ يقرأ فهذا صحيح، ولكن ما هي صورة القراءة في كلّ مرّة؟

1– المدارج

إذا اعتبرنا أنّ "فعل القراءة هو فك شفرة النص"[7]،فإنّها ستغدو بهذا المعنى إجراءً حاويا لمختلف المدارج؛ لتستوعب **الشرح، التفسير والتأويل**، وتأتي في كلّ مدرج بصورة مختلفة للنص، عن تلك التي تتولّد عن المدرج الآخر، ساعية دائما إلى الفهم الذي هو "تجاوب منتج"[8]. وبين هذه المدارج فروقات رغم أنّ هناك من الدارسين من لم يرسُ عليها؛ فـ"لقد أشار الباحثون الغربيون إلى التأويل بأوجه مختلفة، فمنهم من رأى أنه التفسير، ومنهم من اعتبره الشرح، وآخر ربطه بالفهم وهناك من ضمه إلى الترجمة"[9]؛ في حين أنّ **الشرح** "توضيحٌ يظلّ مطابقا لظاهر النصّ ومقاصده المعلنة"[10]، أمّا **التفسير** فـ"هو التفصيل؛ أي كشف الشيء وتبيانه وشرحه والإفصاح

---

[6] – فولفغانغ إيزر: فعل القراءة _نظرية جمالية التجاوب (في الأدب)_. تر: د.حميد لحمداني، د. جلالي الكدية. ص 5–6 (المترجمان: 1994/04/17).

[7] – محمد عزّام:"سلطةالقارئ في الأدب". مجلة الموقف الأدبي * مجلة أدبية شهرية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق * العدد 377، أيلول،2002.ص 07.

[8] – فولفغانغ إيزر: فعل القراءة _نظرية جمالية التجاوب (في الأدب)_. ص 88.

[9] – عبد القادر فيدوح: إراءة التأويل ومدارج معنى الشعر. صفحات للدراسات والنشر، دمشق_سوريا، الإصدار الأول، 2009م، ص 52.

[10] – محمّد الدغمومي: "تأويل النص الروائيّ"، من كتاب: من قضايا التلقي والتأويل (مناظرة). المملكة المغربية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 36، الرباط، مطبعة الآداب الجديدة بالدار البيضاء، ط1، 1994.ص 49.

عنه"[11]؛ وأمّا **التأويل** فـ"فضاء أوسع من المعنى والتفسير، بحيث لا يفصح ولا يوضح، بل يومئ، ويوحي، ويشير، ويرمز... لا تحدّه قصدية، ولا يقف عند مجرد الإفادة"[12]؛ وانطلاقا من هذه الفروقات تنشأ الاختلافات في الرؤى وتتعدّد القراءة.

يقف القارئ عند هذه المدارج، فيحاول فكّ مغاليق النصّ في ضوء كل منها، ويبدو أنّ الشرح أهونها، لأنه يوحي باستيعاب كلّيّ أو غالب لما يدور في النص من معانٍ من طرف القارئ الذي تتوقف مهمّته فيه على الجانب اللفظيّ، من خلال تذليله لمن هم دون مستوى فهمه؛ وكأنما العلّة في النصوص التي تتعرّض لمحكّ الشرح ليست المعاني بقدر ما هي صياغاتها؛ وهذا ما لاحظه بعض الدارسين المحدثين في قراءة العرب القدامى للنصوص آنذاك، "حيث كان القارئ أو المحلل-(وكانوا يطلقون عليه الشارح)- يعمد إلى شرح الألفاظ الغريبة،وفك المعاني التي كان يجدها مستغلقة في النص المطروح للتحليل (والنص هنا ينصرف غالبا إلى البيت الشعري)."[13] وكذلك الشأن تقريبا بالنسبة للتفسير -وإن كان يعلو المدرج الأوّل-، فاللفظ هو مركز الاهتمام مادام وعاء المعنى الذي يحمله، وقد لا يكون صعب المأخذ ولكنّه يشْكُل على المتلقي فلا يستبين الحقيقة فيه من المجاز، فيضطرّ حينئذ إلى تجاوز الشرح إلى التفسير، ويبدو أنّ التأويل "تحقّقٌ لدرجة أعلى من الفهم"[14]، فقد يأتي النصّ على صياغات بسيطة ومباشرة، ولكنّ ما تخفيه هذه الصياغات - على بساطتها- دلالاتٌ متشعّبة المراجع والمرامي.

على أنّ للتأويل طرقا، كما أنّ مراجعه ومراميه متشعّبة، حيث يشير أمبرتو إيكو إلى نوع آخر له، وهو "التأويل المفرط" الذي ينشأ من خلال التركيز على بعض العناصر الجوهرية في النصوص، والتي تتمحور حولها ظلال كثيرة للمعاني، فيعمد القارئ إلى استحضار ظلّ معيّن لها يستوعبه الذهن، ولكنه في الجوهر ليس مناسبا، أو غير متفق مع السياق أو المقام؛ فمن خلال البحث العميق، والتبصّر المتكرّر ينتفي ذاك الظلّ لصالح ظلّ آخر ليستقرّ ويتلاءم مع

---

[11]- عبد القادر فيدوح: إراءة التأويل ومدارج معنى الشعر. ص 105.

[12] - المرجع نفسه. ص 105.

[13] - عبد الملك مرتاض: "تقاليد القراءة وأصولها في الأدب العربيّ". مجلّة نزوة: أدبية ثقافية فصليّة، ع 4، مؤسّسة عُمان للصحافة والنشر والإعلان، تاريخ النشر: 2009/06/17م، الموقع: http://www.nizwa.com/articles.php?id=149

[14] - محمّد الدغمومي:"تأويل النص الروائيّ". ص 47.

السياق[15] ، فعبارة من مثلا: "هجرنا وتركنا نندب حظّنا.. قطّي المسكين"، لا يمكن أن تقبل إسقاط معنى "النصيب" على كلمة "قطّ" فيها، والتي قد يستنتجها متلقٍّ اعتمادا على معنى "القطّ" في الآية الكريمة: ﴿رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَاب﴾[16]؛لأني أريد من خلالها معنى "الهرّ: ضرب من السنوريات"؛ فالانطلاق مثلا من المعنى الأوّل يغيّر الدلالة الكلّية للجملة ويقلبها رأسا على عقب! ذلك أنّ المتلقي الذي اتكأ في قراءته لهذه الجملة على هذا المعنى، قد فهم أنني أتحدّث عن تأخّر "النصيب" أو "الحظّ العثر" تحديدا؛ بينما ما هو مقصود لا يعدو كونه تذكّرا لموقف أليم ألمّ بصاحب النص الذي يفتقد هرّه الضائع، وتذكّره فجاءت صياغته على هذه الشاكلة، وحدث أن توافق السياق مع المعنيين لظروف ذاتيّة، وأخرى مقاميّة. وربما يرجع ذلك إلى تقصير من لدن المؤلّف لا لقصور في رؤية المتلقي القارئ، لافتقار نصّه إلى "النقاط الراسخة التي يقترحها النصُ المقروء. وهذه النقاط الثابتة، كالمراسي تعقل القراءة وتجنبها سلوكَ سبل خاطئة وبالتالي تمنعها من التيهان."[17]وسواء كان النقص من هذا الطرف أو من الآخر، فإن التأويل يكون في هذه الحالة وفي بعض الأحايين مسيئا إلى النص لا خادما له! خاصة عندما يكون الناص حاضرا غير غائب، ويكون نصّه محمّلا بقصديّته الشخصية! إذن، "فالعلاقة بين التأويل والقصدية متنافرة"[18]، إذا حضر فيها الأول انتفى الثاني بالضرورة! وتبقى الاستثناءات دائما تفرض نفسها في كلّ اجتهاد أو تخريج..

إننا نحاول في هذا المقال أن نحصر دراستنا في التفاعل القائم بين البنية النصية والفعل القرائيّ الذي يضطلع به المتلقي في هذه المرحلة، بعيدا عن العامل العاطفيّ والتأثيريّ الذي يحتكم إليه أحيانا هذا الطرف في قراءته، فيتحكّم في طبيعتها ودرجتها ومدارجها؛ حيث يأخذ التحليل النفسيّ نصيبا مفروضا في الكشف عن دلالات مختلف النصوص الأدبيّة في هذه الحالة؛ اعتمادا على كون الأدب "تجربة" أو "تجارب مبرمَجة". لأنّ هذا السبيل سوف يعود بنا إلى

---

[15] – ينظر، أمبرتو إيكو: التأويل والتأويل المفرط. ص 62/ 66.

[16] – سورة (ص): الآية 16 .

[17] – حسن مصطفى سحلول: نظريات القراءة والتأويل الأدبيّ وقضاياها _دراسة_. منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، 2001م، ص 70.

[18] – ينظر؛ حميد لحمداني:"الخطاب الأدبيّ: التأويل والتلقّي"، من كتاب: من قضايا التلقي والتأويل (مناظرة). ص 09.

قصدية الملقي، ويجعلنا حبيسي المعنى الأحاديّ الذي يتوارى خلف الكلمات، والذي كان خيالا قبل أن يستحيل أشكالا لفظية[19].

سيتجاوز القارئ من خلال هذا التفاعل مرحلة "**اكتشاف** أنه يمكن للنصوص أن تقول كلّ شيء، عدا ما يريد مؤلفوها أن تعنيه"[20]، ليسعى وراء مرحلة "**بعث**" جديدة لها، تتخطّى "الاكتشاف" الذي يقضي بأن تشعّ الاحتمالات اللانهائية للدلالات المبثوثة في ثنايا تلك النصوص من بطونها، ويوحي بأن المتوصَّل إليه كان "سابقا مستورا"؛ فينطلق إلى فضاءات أُخَر، لا تشعّ من خلال النصوص، بل تشعّ عليها"، وبالتالي فإن الأثر الذي يحدثُ عند كل قراءة، هو أثرٌ جديدٌ يحدث للمرة الأولى؛ذلك أننا لا نقرأ أبداً نفس النص مرتين[21]"، ويمكن أن ننظر إلى هذه الخطوة حيث ننطلق من وإلى الفضاءات التي أضاءت النص بدلا من أن نصل إليها، فهذا مظهرا قد يقودنا إلى تجليات ظاهرة "التناص".

2- قمّة الإنتاج: "التناص":

إنّ ما يجعل الأمر ينزلق عن الالتزام بحذافير النصّ إلى مدارات أوسع قد تجعل عمل القارئ في هذه الحالة ضربا من الإبداع الذي تولّد عن النص الأوّل -مدار التلقي السابق-؛ ما هو سوى نتيجة "للتخمين من جهة القارئ

... وتقوم مبادرة القارئ أساسا على القيام بتخمين حول قصد النص. [22]" فمادام النص مزيجا بين التصريح والتلميح، بل قد يكون أحيانا كثيرة كتلة من الإيماءات، فإنّ هذه الصيغة تسوّغ أن يبحر القارئ في أبعاده غير المنتهية، وكلّما غار في أعماقه، كلما ابتعد عن سطحه الذي لا يعدو كونه "رسالة مختلسة"[23]، ليقع على ظلال وارفة؛ فيأتي بنصّ قائم بذاته، تتجاذبه نقاط ائتلاف واختلاف عن الأول؛ حيث تمثّل نقاط الائتلاف تلك القراءة التي انطلقت بدايةً من

---

[19] – ينظر؛ نظريتا نورماند هولاند وسيمون ليسر ضمن: فولفغانغ إيزر: فعل القراءة _نظرية جمالية التجاوب (في الأدب)_. تر: د.حميد لحمداني، د. جلالي الكدية. ص 36 إلى 49.

[20] – أمبرتو إيكو: التأويل والتأويل المفرط، تر: ناصر الحلواني. ص 50.

[21] – حسن مصطفى سحلول: نظريات القراءة والتأويل الأدبيّ وقضاياها. منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، 2001م.ص 95.

[22] – أمبرتو إيكو: التأويل والتأويل المفرط، تر: ناصر الحلواني. ص 81.

[23] – المصدر نفسه. ص 81.

النص، إمّا شرحا أو تفسيرا، بينما تمثّل نقاط الاختلاف الأبعاد التي تمخضت عن التأويل وتبعاته.

تعتبر نقاط الاختلاف التي تقودنا إلى أبعاد النص، همزة وصل وفصل في الآن نفسه؛ فهي الشعرة التي تتسلّ من خيوطه بادئ الأمر، والنسيج الذي يمتدّ خارج زواياه مشكّلا تصوّرات لم تكن في الحسبان؛ فيضطلع القارئ في هذه الحالة بعمليّة "فهم النص... أحسن مما فهمه مبدعه"[24]؛ وهل يكون حسن الفهم سوى نافذة جديدة تطلّ على نصّ "لم يقله النصّ"[25]!

ورغم أنّ هناك من نادى _أو مازال ينادي_ بـ"أنّ عمليّة القراءة ليست في حقيقتها عمليّة وعي بالظواهر اللغوية والأسلوبيّة؛ وإنّما عمليّة انغماس في طريقة المؤلّف في اختيار العالم، والعلاقة هنا تكون بين المؤلّف والقارئ وليست بين النص والقارئ"[26]، ممّا يجعلنا نفهم أنّ القارئ لابدّ عليه أن يبقى حبيس إرادة المؤلّف وسعيا حثيثا للقبض على "ما يريده" هذا المالك الأول للنص _وهو أمر أشرنا إلى استحالته سابقا نظرا لطبيعة مدرج التأويل، وضدّيته للقصديّة غالبا_.

هناك في المقابل من يستدرك على هذا الرأي، ويشدّد على كون العلاقة قارّة بين نصّ وقارئ لا ثالث لهما ولا بديل عنهما، فـ"موقف القارئ من النص الأدبيّ يشبه إلى حدّ كبير موقفه من الحياة بصفة عامّة."[27] لذلك لا غرابة أن تصطبغ القراءة في هذه العلاقة بصبغة بعيدة عن تلك التي أوجدتها ذات المؤلّف، ما دام القارئ "منطلقا من خبرته ورؤيته الخاصّة للعالم."[28]

تقوم القضيّة في جوهرها، عندما ننتقل إلى "التناص"، على تغيّر في مسار القراءة كلها؛ ذلك أنّ "التفسير"، "الشرح" و"التأويل" جميعا مفادها في نهاية المطاف الوصول إلى عنصر "الفهم" "الذي هو أكثر اتجاها نحو الوحدة القصديّة للخطاب."[29] وسنتحفّظ على كلمة "القصديّة" حتّى لا نتناقض مع طبيعة العلاقة بين القصدية والتأويل تحديدا، لنتصرّف في دلالتها حسب المقام

---

[24] – محمد سالم الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة _بحث في بلاغة النقد المعاصر_. ص 64.

[25] – المرجع نفسه. ص 72.

[26] – يوسف نور عوض: نظرية النقد الأدبيّ الحديث. دار الأمين للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1994م، ص 60.

[27] – المرجع نفسه. ص 62.

[28] – المرجع نفسه.ص62

[29] – بول ريكور: نظرية التأويل _الخطاب وفائض المعنى_، تر: سعيد الغانمي. المركز الثقافيّ العربيّ، الدار البيضاء_المغرب، ط2، 2006م.ص 120.

الذي نحن فيه فنجعلها "معنى ما، يحمله النص، أو يشير إليه، حتى وإن لم يكن نابعا من لدن المؤلّف، أو تابعا لتجربته الخاصّة." ومن ثمّ نستطيع أن نقول إنّ الفهم وإن كان عنصرا ضروريّا في مدارج الإنتاج الأولى للقارئ، فإنه لن يكون كذلك عندما يتعلّق الأمر بعتبة "التناص" التي لا تحاول أن تقع في حمى النص، بقدر ما تسعى لتجعله مطيّة لأفق آخر، ورؤية مغايرة. فتتسع الهوّة بين ذا وذاك، من خلال جسور معرفيّة متراكمة ومتتابعة يستحضرها التعمق، ودرجة نباهة القارئ.

سوف يأخذ "الفهم" إذا حافظنا عليه في خطوتنا الإنتاجية الأعلى "التناص" قالبا مغايرا لذاك الذي تحتكم إليه بقية المدارج، ومن ثم لن يكون هنا "مجرد تكرار للواقعة الكلاميّة في واقعة شبيهة، بل توليد واقعة جديدة تبدأ من النص الذي تموضعت فيه الواقعة الأولى"[30]، وهذا ما يسوّغ للقارئ أن يتحرّر من قيود المؤلّف والنص معا، ليرسم اتجاها جديدا؛ إذ لا تناص من غير فهم أوّليّ، فلولا أنه ينطلق مما وقع عليه في النص الأول، ويستعين بالعوالق التي جناها من خلال خطواته السابقة، لما استطعنا كشف التداخلات بين النصين ، وإن تفاوتت غموضا أو وضوحا، شكلا أو روحا.

لذلك فإنّه من المسلّم به عندما نتحدّث عن ظاهرة كالتناص، فإن" أيّ نص يقع في نقطة التقاء عدد من النصوص، الذي هو في الوقت نفسه إعادة قراءة لها وتثبيت لها وتكثيف (لها) وانتقال (منها) ، وتعميق (لها)"[31]، فمهما حاول القارئ الابتعاد عن تخوم النص المتناول، فإنه لن يستطيع أن يتحرّر كلّيّة من (رواسبه)، وسيبني إنتاجه التالي على أنقاض الأوّل، تعزيزا له أو نقضا، تبعا للموقف الذي يتبناه تجاهه[32]؛ فتتراكم المعارف، وتتداخل الآليّات، وتتفاعل الإسقاطات، مما يجعل العمليّة أكثر تعقيدا من القراءة ذاتها، وأكثر صعوبة في تبيّن النصّ الأصل من النصّ الفرع، فلا يتلقّفها إلا مثلُ خبير.

---

[30] – بول ريكور: نظرية التأويل، المصدر السابق، ص 122.

[31] – مارك أنجينو: "التناصية ... بحث في انبثاق حقل مفهومي وانتشاره"، 79؛ ضمن كتاب: "آفاق التناصية –المفهوم والمنظور–"، تر: محمد خير البقاعي. 30، الهيئة المصرية العام للكتاب، 1988م، ص 69.

[32]– ينظر؛ محمد خير البقاعي: بحوث في القراءة والتلقي. مركز الإنماء الحضاريّ، حلب، ط1، 1998.ص 69.

يحيلنا هذا التفاعل القائم بين النصوص، والنقلة الحاصلة في مسار التعاطي معها، على الإشارة إلى أنّ "النص" المعني بالقراءة سوف يتماهى في حلقة من النصوص الأخرى التي كان يمكن أن تمثّل شرحا له، أو تفسيرا أو تأويلا في "الدرجة الأولى من القراءة" _إن جاز لنا أن نسميها كذلك_؛ فهو لن يعتبر بأيّ حال من الأحوال "المنطلَق"، وغيره أذيالُ.. بل سيغدو على السلّم ذاته مع بقية النصوص التي أنتجها القرّاء اعتمادا عليه؛ لأنه في النهاية لن يكون "النص" الوحيد الذي يتضمنه النص الموالي له، إذ سنعثر على مجموعة نصوصية غير منتهية، تظافرت وتفاعلت فأنتجت هذا الأخير الذي مآله في نهاية المطاف أن يكون جزءا من كلّ مركّب كما حدث لسابقه؛ وهكذا دواليك، لتبقى الحلقة تتصل بداياتها بنهاياتها في حركة دائريّة مستمرّة، وننتقل من (سلطة النص)، إلى (سلطة القارئ) "في اختراعه معاني متلهيّة."[33]

إنّ هذه الحلقة المستمرّة للنصوص المتصلة بعضها بعضا، وعلاقتها بسلطة القارئ توحي إلى أنّ "ثمة ركاماً من الصور يتزاحم على ذاكرة المبدع بمجرد شروعه في تصوير التجربة، فأمامه تجربته الخاصة، وأمامه معطيات واقعه، ومن خلفه مقومات تراث ممتد ضارب في أعماقه، يدفع إليه بالأشباه والنظائر بما لا يمنعه من حق التوقف أمامها والتأمل لمقاومتها والإفادة منها."[34] وهكذا يزداد وثاق النصوص ببعضها، وتتظافر كلها ليلين جانبها للقارئ الذي يصبح صاحب الأمر والنهي في التصرّف معها وفيها، عن وعي أو غيره، مادامت قد تخمّرت في رأسه الأفكار، وتداخلت حدّ التماهي الذي لا يبيح له طريقة لإعلاء نصّ على آخر في هذه الحالة.

لن يعود بإمكاننا الآن أن نتحدّث عن "نصّ" وكفى، بقدر ما سيضطرنا هذا المسار إلى التسليم بـ"كومة" من النصوص التي تمثّل عالما أكبر؛ "ذلك لأن العمل الأدبي يدخل في شجرة نسب عريقة وممتدة تماماً مثل الكائن البشري، فهو لا يأتي من فراغ كما أنه لا يفضي إلى فراغ. إنه إنتاج أدبي لغوي لكل ما سبقه من موروث أدبي،وهو بذرة خصبة تؤول إلى نصوص تنتج عنه. ومن طبع النص الأدبي أن يكون مخصباً ومنتجاً تماماً مثل كل كائن حي مثل الإنسان والشجرة."[35] ومن هنا تزداد مسؤولية القارئ، بقدر ما يراها هو ازديادا في السلطة، حيث يلفي

---

[33]– رولان بارت: "من العمل إلى النص"؛ بحث مترجم ضمن كتاب:"آفاق التناصية _المفهوم والمنظور–"، تر: محمد خير البقاعي. ص 20.

[34]– عبد الله التطاوي: المعارضات الشعرية: أنماط وتجارب. دار قباء للطباعة والتوزيع، 1998م، ص 193.

[35]– عبد الله الغذامي: ثقافة الأسئلة: مقالات في النقد والنظرية. النادي الأدبي، جدة، ط1، 1992، ص 111.

نفسه فردا أمام جمع لا عدد له، وكمّ لا حدّ له من التراكمات المتداعية، التي تحتّم عليه أن يكون أكثر حذرا، وأدقّ غورا في محاولة لملمتها، وتحقيق الانسجام فيما بينها لتتمثّل له (جسدا سويّا).

ثم إنّ الانتقال من النص الواحد إلى المتعدّد جرّاء هذا التداخل والإجراء، يحيلنا على قضيّة أخرى لا تقلّ أهمّيّة بمكان عما سبق ذكره، وهي التي تتعلّق بـ"نسب النص" إن صحّ التعبير؛ فلقد توقفنا مليّا عند الطرف القارئ الذي أصبح يمسك بتلابيب النص بعد أن تيتّم، ونسبنا إليه كلّ ممارسة قرائية على اختلاف درجاتها ومدارجها من باب أنه "صاحب السلطان" في تفعيل الدلالات واستحضار الغائب. ولكنّ الأمر في هذه الحالة يختلف نوعا ما، لأنّ مجرّد القول بوصول القارئ إلى عتبة "التناص" – وبناء على مفهومها الجوهريّ– يحتّم علينا أن نراعي تلك التعدّدية القائمة على التداخل المفضي إلى أنّ سلطة القارئ الواحد أيضا هي على المحكّ، فنحن أمام قرّاء، ومبدعين كانوا كذلك من قبل، وسيظل تواتر القراءة والإبداع حاصلا عند هؤلاء ما داموا يقرؤون ويكتبون؛ ومادام الأمر على هذه الشاكلة، فإنّ قضية "السلطة" سوف تتلاشى، لأننا أمام جماعة لا فرد واحد؛ فلمن تكون السلطة من بينهم إذن، وقد "غدا النص ملكيّة عامّة"؟![36]

لن يشكّل هذا التعدّد والتداخل حجرة عثرة أمام سلطة القارئ فقط، بقدر ما سيمتدّ أثره إلى طبيعة القراءة ذاتها وطريقتها؛ فكما أشرنا سابقا إلى أنّ القراءة للنص الواحد لا تكون على وتيرة واحدة، أو مدرج واحد كما سميناه، ولكنها تتراوح بين الشرح والتفسير والتأويل تبعا لطبيعة النص ومستوى القارئ معا؛ هذا بالنسبة للنص حين نتعامل معه على أنه كتلة متلاحمة مستقلة بذاتها، فكيف إذا انطلقنا الآن من كونه كلاّ مركّبا من مزيج من نصوص أخر؟ فالمسؤولية في هذه الحالة سوف تتضاعف، والكثافة التي يتبدى من خلالها النص لقارئه أثناءها سوف تشكّل طبقات متراكبة تستدعي من القارئ جهدا أكبر، ومستوى أرقى، لكي يتمكّن من استبانة طبقات النص المتداخلة، والتمييز فيما بينها، ثمّ محاولة شرحها أو تفسيرها أو تأويلها، وبعد كلّ ذلك، محاولة التوفيق بين ذاك الشتات المتنافر والمتلاحم في الآن نفسه، للخروج بقراءة جامعة..

[36] – حسين جمعة: المسبار في النقد الأدبي. منشورات اتحاد الكتّاب لعرب،دمشق، ص 139. www.awu-dam.org

شيء آخر يعترض الممارسة القرائية والإنتاجيّة للقارئ عندما يواجه النص القائم على التداخل، وهو قضية "السَّنَن الفنّيّة التي تميّز بين الأجناس الأدبيّة"[37] والتي يجب أن يستقرّ عليها القارئ في تعاطيه مع النص المقروء أو المنتج على السواء؛ فإذا لم يكن هذا القارئ على بيّنة من تركيبة كلّ طبقة نصّية يتألّف منها النصّ الأكبر، فإنه لن يوفّق في الوصول إلى قراءة مستنيرة تؤتي أكلها كلّما عاودته تلمّسا ومماسًا؛ والدليل على ذلك أن النص الأكبر إذا ما نظرنا إلى النصوص المتداخلة فيه فإنها لن تكون بالضرورة من نفس جنسه الأدبيّ، ولا من نفس أسلوبه؛ فـ"التناصية قدرُ كل نص مهما كان جنسه،لا تقتصر حتما على قضية المنبع أو التأتي، فالتناص مجال عام للصيغ المجهولة التي يندر معرفة أصلها،واستجلابات لا شعورية عفوية"[38]، ذلك أنه "يضيء (القدرة التوالدية) التي للغة، فيبعثها"؛[39] فقد نجده مثلا "رواية" تتضمن في ثناياها ألوانا من النصوص الخبيئة: الشعريّة القصصيّة، الدينيّة، والتاريخيّة وغيرها من الأشكال التي تتفرد بخصائصها الفنّية والأدبيّة؛ ممّا يضطرّ القارئ إلى أن يزداد علما وبيانا بكلّ هذه المعطيات التي يفرضها سياق النصّ، وأن يستبين الاختلافات فيما بينها، ثمّ يخلّق التناغم من اللاتناغم.

تحيلنا الفكرة أعلاه إلى تبيّن الجبهة الثانية التي تتوزّع عليها ملامح التناص، وهي "اللغة " التي ينبني بها وعليها النصّ "فيزيحها من سياقها التداولي الأصلي، ليمنحها بناءً تركيبيًا ودلاليا جديدا مستمدا من قاعدة أن الإبداع لعب باللغة، ومن أجل اللغة"؛[40]وذلك بعد أن أشرنا سابقا إلى التداخل في المعاني بين هذه النصوص غير المنتهية كمّا وكيفا، حيث إننا سنلِج حلقة أخرى تشكّل محطّة لا ينبغي تجاهلها في حديثنا عن التفاعلات، فتتصعّد العمليّة القرائية، وتجدنا أمام توليفات شكلية ومضمونية يستحضرها الموقف بأكمله؛ فهل سنحكم حينها للقارئ بأنه منتج

---

[37]– المختار السعيدي: نظرية التلقي في الغرب. ص: 05. موقع الأساتذة المبرزين والباحثين في اللغة العربية بالمغرب: arabeagreg3.voila.net/pdf/SAIIDII.pdf

[38] – رولان بارث:"نظرية النص"؛ ضمن كتاب: دراسات في النص والتناصية، تر: محمد خير البقاعي. الإنماء الحضاري للنشر، حلب، 1998.ص38.

[39]– عدنان بن ذريل: النص والأسلوبية _بين النظرية والتطبيق_ (دراسة). منشورات اتحاد الكتّاب العرب، 2000م، ص 19.

[40]– عبد المجيد علوي إسماعيلي: "النص الأدبي و سنن التلقي و التأويل". نشر في الشرق المغربية يوم 07 – 10 – 2012، http://www.maghress.com/sohofe/5321

لنصّ كامل متكامل؟ أم للُغة؟ أم للمضمون؟ طالما أنّه لن يكون بأيّ حال من الأحوال (بِدعا) من غيره، مبدعين كانوا أم قرّاءً؛ على اعتبار "التناص هو تبادل نصوص ما أشلاء نصوص أخرى دارت أو تدور في فلك نص يعتبر مركزا وفي نهاية الأمر تتحد معه،وكل نص هو تناص،والنصوص الأخرى تتراءى فيه متفاوتة، واللغة هي النظام العلامي الوحيد الذي يمتلك القدرة على تفسير الأنظمة الدلالية الأخرى،وعلى تفسير نفسه بنفسه أيضا"[41].

3- هل "التناص" عالة على القراءة أم عائل لها؟

تستوقفنا في هذه النقطة قضيّة شغلت منظّري التلقّي والقراءة زمنا، وهي "السواد والبياض" اللذان يتوزعان على مساحات النصوص بأشكال مختلفة، وظلال متفاوتة؛ ولعلّ عنصر "البياض" كان أكثر تواجدا وتداولا لدى هؤلاء المنظّرين باعتباره الدافع الأكبر، والمظهر الأبرز، والدليل الأوضح على ضرورة إدماج الطرف المتلقّي في عمليّة القراءة، حيث يتوجّب عليه "وضع نفسه في المركز الإبداعي للمنتج نفسه، عبر إعادة إنتاج الوحدة الفنية"[42]. فالقراءة إذن لا تهمّش ما هو ظاهرٌ (السواد)، ولكنها تحاول أن تجاوزه إلى ذلك (الصمت) الذي يتخلّله، والذي يستفزّ قريحة القارئ، ويجعله أكثر تطلّعا وفضولا لمعرفة ما لا يزال خبيئا؛ ".

إن القراءة إذا لم تتم على نحو من التأمل والشرود والتذكر والتداعي، فهي ليست أكثر من تتبع للسواد على البياض، أو التقاط لأفكار النص فحسب، والمطلوب هو أن تكون الكلمات المكتوبة محرضاً ومثيراً لانطلاق الفكر والذهن في آفاق المعرفة وراء تفرعات الموضوع، أما الاكتفاء بما هو مكتوب، فليس أكثر من قراءة أحادية تستمد دون أن تتفاعل، وتذخر من أجل قراءات مستقبلية."[43]

وإذا كانت القراءة في مجملها قائمة على اعتبار "البياض لغة إيحائية ومساحة تترك للقارئ المتلقي ليقرأ من خلالها فكر الشاعر وإحساسه"؛[44] فإنّ "التناص" كقمّة في الإجراء القرائيّ يتخذ

---

[41] – حسين جمعة: المسبار في النقد الأدبي. ص 135.

[42] – بول ب. أمسترونغ: القراءات المتصارعة –التنوع والمصداقية في التأويل–، تر: فلاح رحيم. دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2009، ص80.

[43] – محمد عزّام:"سلطة القارئ في الأدب". ص 12.

[44] – مجموعة من الأساتذة والنقاد:سلطة النص في ديوان البرزخ والسكين _دراسة نقدية_. منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، دار هومة للطبع، ط1، 2002م، ص203_ 204.

من كلا العنصرين (السواد والبياض) سندا متوازنا لكي يخرج بنصّ آخر؛ أوَ ليس "التناص" كما سبق وعرفنا "تداخلا لنصوص ببعضها شكلا ومضمونا، وامتصاصا حاصلا فيما بينها"؟ وهذا يعني أنّ (السواد) الذي في النص المقروء عامل هامّ في تشكيلة النصّ الثاني المتولّد عنه، ينضاف إليه (البياض) باعتباره أساس الممارسة القرائيّة، ثمّ يتفاعل العنصران ويختمران؛ "وبهذا لا يعيد القارئ إنتاج المنتج سابقاً، وإلا أصبح النص مكرراً، وإنما هو يجدد المنتج من خلال قراءته له، فيصبح المقروء إنتاجاً جديداً يعتمد على المنتج السابق، ولكن من خلال رؤية القارئ. وتصبح عملية القراءة مقدمة لعملية إبداع جديدة. وبهذا فإن الكاتب يموت، ليولد من رماده القارئ الذي يستلهمه ويضيف إليه. وهكذا يتحوّل النص الإبداعي إلى نص تأويلي، ويبدو عالماً متحولاً على الدوام بحسب قرّائه."[45]

وعليه، فإنّ ما يحسَب "للتناص" أنه إجراء أكثر شمولا، وأوسع مدى في التعامل مع النصوص المقروءة انطلاقا من استثماره لمعطيات هذه النصوص جميعها صغيرها وكبيرها، ظاهرها وباطنها؛ ففيه لا تفضيل لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض، بل إنّه لا يمكن أن يكتمل بناءً ومفهوما إلاّ إذا أمسك العصا من الوسط، وأخذ من كل عنصر ما يخدمه؛ فشرط أن يتجاوز "القراءة التي تقول ما يريد المؤلف قوله، فلا مبرر لها أصلاً، لأن الأصل أولى منها، ويغني عنها."[46] ولأنها في نهاية المطاف "مجرد صدى للنص"[47]؛وفي الوقت نفسه، عليه أن "يدرك أنّ سر النص هو خلاؤه."[48].

التناص إذن، يتضمّن القراءة بكلّ خطواتها، ويزيد عليها، ليبتعد عن "النص الأصل" والقراءات التابعة، ويدخل في دائرة "النصوص المتوازية":

في القراءة: نص ⟺ قراءة (1، 2، 3...)

---

[45] – محمد عزّام:"سلطة القارئ في الأدب". ص 04.

[46] – علي حرب، نقد النص، المركز الثقافي العربي، ط2،بيروت– الدار البيضاء، 1995، ص 20– 21. عن: عبد القادر شرشار: "نظرية التلقي وقراءة النص الأدبي". مجلة الموقف الأدبي – مجلة أدبية شهرية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق – العدد 367 تشرين الثاني2001، ص 3.

[47] – علي حرب: "قراءة ما لم يقرأ: نقد القراءة". مجلة الفكر العربي المعاصر، ع6، 1989، ص41.

[48] – أمبرتو إيكو: التأويل والتأويل المفرط، تر: ناصر الحلواني. ص 50.

في التناص: قراءات نص (مركّب) ⟷ نص(مركّب)⟷نص (مركّب)...

نتبيّن من المخطط أعلاه أنّ القراءة لا تهتمّ بـ"منبع" النص، فهي تتناوله تشكيلة متكاملة شكلا ومضمونا، يتجاذبها سواد وبياض، ويحتل فيها البياض حظ الأسد كإشارة لـ"ثقوب يُكلف القارئ وحده برَتْقِها، وفجوات يقوم القارئ وحده بملئها"[49]. فالنص فيها هو المنبع للقراءات التي تستنير به، وتنطلق منه؛ أمّا التناص فلا يغفل علاقة السابق باللاحق، ويتّكئ على التداخلات كعامل أساس لا يمكن إهماله في إنتاجية النصوص، فـ"كل قراءة [فيه]، حقا، لا تنطلق من فراغ، وإنما تكون مبنيّة على نصوص ومعارف سابقة مخزونة في موسوعة القارئ، ثمّ تتحرّك وتنتعش كلّما واجهت نصّا، وحصل تفاعل بين النص والقارئ."[50]

ثمّ إنّ معاملة التناص للسواد لا يجب أن تفهم على أنها إعادة اجترار للمجتر، أو نقل حرفيّ لسابق وبثّه في لاحق، وإنما هي تصرّف إبداعيّ في هذا السواد "لابدّ للقارئ [فيه]... بأن يحس بأنّ كلّ سطر [من النص] يخفي سرّا، وأنّ الألفاظ لا تقول [شيئا ما]، وإنّما تثير ما لم تقله [فتتستّر عليه] وتقنّعه. ولذلك فإنّ تفوّق القارئ يرتكز على أن يجعل النصّ ناطقا بكل ما يكمن فيه..."[51]. ضف إلى ذلك أنّ الفرق الذي بين القراءة والتناص كامن في أنّ التناص يستوعب ما لا يحصى من القراءات جميعا دون أن تنسحب إحداها لصالح الأخرى، بينما في القراءة العاديّة "ثمة قراءة تلغي النص، تقابلها قراءة تلغي نفسها."[52]

وأخيرا، نستطيع أن نجمل جواب السؤال المرتبط بعلاقة "التناص" بـ"القراءة"، إن كان خادما لها، أم عاملا مشوّشا ومعيقا، بكون التناص –وإن لاحظنا أنه مرحلة عليا للقراءة– خادما للنص في حدّ ذاته، من خلال قارئه، طالما أنه يهتمّ بالتطورات الحاصلة في كلّ نص سابقا كان أم لاحقا؛ ويستوعب بياضاته وسواداته ثم يستثمرها، ولا يقوم على الإلغاء بل على التلاحم والتواصل فيما

---

[49] – عبد العزيز حمودة: "الخروج من التيه". عالم المعرفة، ع298، نوفمبر 2003م، ص 99.

[50] – أحمد بوحسن: "النص بين التلقي والتأويل –نصّ الدكتور "طه حسين في (إلغ) لمحمد المختار السوسي". من كتاب: من قضايا التلقي والتأويل (مناظرة)، لمجموعة من المؤلفين. ص 126.

[51] Les limites de l'interprétation , p.65

عن: إدريس بلمليح: "من التركيب البلاغيّ إلى المجال التصوّري عند عبد الله راجع". من كتاب: من قضايا التلقي والتأويل (مناظرة)، لمجموعة من المؤلفين. ص 86.

[52] – علي حرب، نقد النص، ص 20. عن: عبد القادر شرشار: "نظرية التلقي وقراءة النص الأدبيّ". ص 03.

بينها؛ وأنّه يضمن "تحويل القارئ إلى منتج للنصوص، مما يجعلها مضاعفة الجدوى. فهي من ناحية تثري النص إثراءً دائماً باجتلاب دلالات لا تُحصى إليه، ومن ناحية أخرى تفيد في إيجاد قراء إيجابيين يشعرون بأن القراءة هي عمل إبداعي."[53]كلّ تناص إذن هو قراءة و"نشاط مكثف وفعل متحرك"[54]ذهابا وإيابا، سطحا وعمقا؛ ولكن القراءة العادية بعيدا عن عنصر "التناص" تبقى محدودة، ومحصورة في التسليم بكون "النص الأدبيّ... يقوم بمجموعة من التوجيهات تقود القارئ نحو تجميعه للمعنى من أجل نفسه."[55] مما يبقيه وفيّا للنص، مقيّدا في إنتاجيته.

[53] – محمد عزّام:"سلطة القارئ في الأدب". ص 09.

[54] – علي حرب: "قراءة ما لم يقرأ: نقد القراءة". ص41.

[55] – فولفكانك إيزر: "آفاق نقد استجابة القارئ"، من كتاب: من قضايا التلقي والتأويل (مناظرة)، لمجموعة من المؤلفين. ص 223.